

المحاضرة الثانية عشر: النوازل وأهميتها في الدراسات التاريخية

أولاً: مفهوم النوازل (لغة واصطلاحاً وتاريخياً)

1. التعريف اللغوي

النوازلة في اللغة من الفعل «نزل»، وتنطلق على الحادثة الشديدة أو الواقعة الطارئة التي تنزل بالناس وتستدعي موقفاً أو حكماً.

2. التعريف الاصطلاحي الفقهي

تُعرف النوازل في الاصطلاح الفقهي بأنها الواقعة المستجدة التي لم يرد فيها نص صريح في القرآن أو السنة، وتحتاج إلى اجتهاد فقهي لاستنباط حكمها الشرعي، لارتباطها بظروف اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية متغيرة. وينطلق عليها أيضاً مسميات أخرى مثل: الفتوى، والأجوبة، والمسائل، والأحكام، وهي مفاهيم متقاربة في الدلالة.

3. تعريف النوازل في الدراسات التاريخية

في الحقل التاريخي، تُعرف النوازل بوصفها نصوصاً فقهية اجتماعية تعكس استجابات العلماء والمجتمع لواقع تاريخية ملموسة، وتعد وثائق غير تقليدية تسهم في فهم البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية للعصور الإسلامية. ومن ثم، فهي لا تمثل مجرد اجتهادات فقهية، بل مصادر أساسية لتحليل الواقع التاريخي.

ثانياً: أهمية النوازل في الدراسات التاريخية

1. الكشف عن الحياة الاجتماعية

تُعد النوازل من أهم المصادر التي تمكن المؤرخ من إعادة بناء ملامح الحياة الاجتماعية، لأنها تتعامل مباشرة مع إشكالات يومنية عايشها الأفراد والجماعات. فهي تكشف عن أنماط الزواج والطلاق، وما يرتبط بها من نزاعات أسرية وقضايا نسب وإرث، كما تبرز طبيعة العلاقات داخل الأسرة الواحدة وبين الأسر المختلفة. وتسمح نصوص النوازل كذلك بفهم العلاقات بين الفئات الاجتماعية المتعددة، من أعيان وعامة، وحرفيين وفلاحين، وأحرار وعيدي، فضلاً عن إبراز أوضاع المرأة ومكانتها داخل المجتمع، بعيداً عن الصورة النمطية التي تقدمها المصادر الإخبارية التقليدية.

وتتمكن أهمية هذه المعطيات في كونها تصدر عن وقائع ملموسة، لا عن تصورات مثالية أو خطابات وعظية، مما يمنحها مصداقية تاريخية كبيرة. وقد أبرز أحمد التوفيق، في دراسته حول المجتمع المغربي في

القرن السادس عشر من خلال النوازل، كيف يمكن لهذه النصوص أن تتحول إلى مدخل أساسي لدراسة البنية الاجتماعية والذهنيات السائدة، ورصد أشكال التوتر والتعايش داخل المجتمع.

2. دراسة التاريخ الاقتصادي

لا تقل قيمة النوازل في مجال التاريخ الاقتصادي عن أهميتها الاجتماعية، إذ تزخر بمعلومات دقيقة حول المعاملات التجارية، والعقود، وأسعار السلع، وأنماط التبادل الاقتصادي. كما تكشف عن الأزمات الاقتصادية الكبرى، مثل الموجات وارتفاع الأسعار والغلاء، وتوضح كيفية تعامل المجتمع والسلطة مع هذه الأوضاع الاستثنائية. وتبرز النوازل أيضًا قضايا الضرائب، والأوقاف، وتنظيم الموارد، مما يسمح للمؤرخ بتتبع آليات الاقتصاد اليومي بعيداً عن التظير المجرد.

وفي هذا السياق، تتقاطع مع ما أكده عبد العزيز الدوري في الاعمال الكاملة "أوراق في التاريخ والحضارة" من ضرورة الانطلاق من الوثائق التي تعكس النشاط الاقتصادي الفعلي عند كتابة التاريخ الاقتصادي، بدل الاكتفاء بالسرد السياسي. كما تلقي مع تحليلات ميشيل شتراوس التي شددت على الترابط الوثيق بين الاقتصاد والمجتمع في الإسلام الوسيط، وهو ترابط تجسده النوازل بوضوح من خلال ربطها بين الفعل الاقتصادي والإطار الاجتماعي والقانوني الذي يتم داخله.

3. فهم السلطة وال العلاقات السياسية

تسهم النوازل كذلك في فهم طبيعة السلطة وال العلاقات السياسية داخل المجتمع الإسلامي، إذ تكشف عن موقع الفقهاء ودورهم في توجيه الرأي العام، وعن طبيعة العلاقة التي ربطتهم بالسلطة الحاكمة. فمن خلال فتاوى تتعلق بالضرائب الاستثنائية، أو المشاركة في الحروب والثورات، أو الموقف من الفتن والنزاعات، يمكن للمؤرخ الوقوف على تصورات الشرعية السياسية، وحدود الطاعة، وأشكال الاعتراض أو المساندة التي مارسها العلماء.

وتبرز هذه النصوص أن الفقه لم يكن مجرد أداة لتبرير السلطة، بل كان في أحيان كثيرة فضاءً للنقد والتوجيه والمساءلة، وهو ما يمنح النوازل قيمة خاصة في دراسة الفكر السياسي الإسلامي. ويتقاطع هذا المعطى مع تحليلات محمد عابد الجابري، الذي بين أن العقل السياسي العربي تشكل في سياق تفاعل دائم بين الفقه والسلطة، وهو تفاعل يمكن تتبعه عملياً من خلال نصوص النوازل.

4. رصد التحولات التاريخية

تتمثل إحدى أهم مزايا النوازل في قدرتها على رصد التحولات التاريخية العميقة، لأنها تكتب في لحظة وقوع الحدث أو أثناء الأزمة، لا بعد استقرارها أو إعادة صياغتها سردياً. وهذا ما يمنحها قيمة توثيقية عالية، و يجعلها أقرب إلى التسجيل الآني للواقع. فالنوازل تلقط المجتمع في حالة حركة وتوتر، وتكشف عن التحولات البطيئة في البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والتي قد لا تظهر بوضوح في المصادر التاريخية التقليدية. ويجد هذا الطرح صداق في توجهات "التاريخ الجديد" كما بلوغها جاك لوغوف، الذي دعا إلى الاهتمام بالوثائق غير التقليدية، وبالزمن الاجتماعي والذهنيات، بدل الاقتصار على الحدث السياسي. وفي هذا الإطار، تمثل النوازل أداة مركبة لفهم التاريخ من الداخل، أي من خلال أسئلة الناس ومشاكلهم اليومية، لا من خلال رواية السلطة أو النخبة وحدها.

5. النوازل كمصدر تاريخي

تعد كتب النوازل مصدراً تاريخياً من الدرجة الأولى، لأنها توثق الحياة اليومية والواقع الاجتماعي والاقتصادية والسياسية من خلال أسئلة واقعية طرحت على الفقهاء وأجوبه ارتبطت بظروفها الزمانية والمكانية. وتمكن هذه النصوص المؤرخ من الاقتراب من المجتمع من الداخل، وفهم تفاعلات الأفراد والجماعات مع القانون والسلطة والفقه في الحياة العملية، وهو ما لا تتوفره عادة المصادر التاريخية التقليدية.

رابعاً: أهمية كتب النوازل في الدراسات التاريخية

تمثل كتب النوازل وثائق تاريخية ذات قيمة علمية وتحليلية عالية، لارتباطها الوثيق بجزئيات الحياة الإنسانية وقدرتها على ترجمة الواقع الاجتماعي بكل تعقيداته. فهي تحتل موقعًا متميزًا ضمن مصادر البحث التاريخي، لما تتضمنه من معطيات دقيقة عن الواقع المعيش للمجتمعات الإسلامية، إذ إن النوازل، بوصفها أجوبة فقهية عن وقائع نزلت بالناس في زمن محدد، لا تعكس فقط موقف الفقه الشرعي، بل تختزن في ثناياها صورة مركبة عن البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. وقد أتاح هذا الطابع الواقعي للنوازل للمؤرخ التحرر من قيود المصادر التقليدية، والانتقال من التركيز على التاريخ السياسي إلى دراسة تاريخ المجتمع والذهنيات، كما أسلهم في الكشف عن الشخصيات المنسية والفنانات المهمشة، ونقل مركز الحدث من النخبة إلى العامة، وتداول القضايا المحظورة والمسكوت عنها، مما جعل كتب النوازل أداة أساسية في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي ورصد التحولات العميقة في المجتمعات الإسلامية.

خامساً: منهجية التعامل مع النوازل كمصدر تاريخي

يُعد توظيف النوازل الفقهية في البحث التاريخي من المهام المنهجية الدقيقة، ذلك أن هذه النصوص لم تُدون في الأصل بقصد التاريخ، وإنما أُنتجت في سياق فقهي تشريعي هدفه الإجابة عن وقائع مستجدة. ومن ثم، فإن التعامل معها كمصدر تاريخي يفرض على الباحث جملة من الإجراءات النقدية الصارمة، تُمكّنه من تجاوز ظاهر النص الفقهي إلى استطاقه أبعاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، دون الوقوع في الخلط بين الخطاب الفقهي والخطاب التاريخي.

1_ نقد نصوص النوازل

يُعد نقد نص النازلة الخطوة الأولى والأساسية في التعامل معها تاريخياً، إذ ينبغي على الباحث أن يتحقق من مدى واقعية الواقعة موضوع الفتوى، وأن يميّز بين النوازل التي تعكس أحداثاً وقعت فعلاً في المجتمع، وتلك التي صيغت في إطار افتراضي أو تعليمي، غالباً ما كان يطرحها طلبة العلم أو فقهاء على سبيل التمرن الفقهي. ويتطابق هذا النقد فحص بنية السؤال والجواب، والبحث عن القرائن الدالة على الواقعية، مثل ذكر الأشخاص، أو الأماكن، أو العبارات التي تشير إلى شيوخ الواقعة وحوادثها المتكرر. كما ينبغي الانتباه إلى السياق الذي أُدرجت فيه النازلة داخل المصنف، لأن ترتيبها أحياناً يخضع لاختيارات فقهية لا لاعتبارات زمنية، وهو ما قد يوقع الباحث في إسقاطات تاريخية غير دقيقة إذا أُغفل هذه المسألة.

2_ ربط الفتوى بالواقع الاجتماعي

لا يمكن للمؤرخ أن يكتفي بقراءة الحكم الفقهي في ذاته، بل يتعمّن عليه ربط الفتوى بالواقع الاجتماعي الذي أفرز السؤال. فالحكم الشرعي يمثل في الغالب بعد المعياري للنص، بينما تكمن القيمة التاريخية الحقيقة في الواقع الكامنة خلف السؤال، أي في وصف المشكلة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية التي دفعت المستفتى إلى اللجوء للفقيه. ومن هنا تبرز ضرورة التمييز بين ما هو فقهي معياري، وما هو تاريخي وصفي، حتى لا يتحول البحث التاريخي إلى إعادة إنتاج للخطاب الفقهي. وينتتج هذا الربط للمؤرخ فهم أنماط السلوك الاجتماعي، وطبيعة العلاقات بين الأفراد والجماعات، وحدود التوتر بين الواقع المعاش والمثال الشرعي، وهو ما يمنح النوازل قيمة استثنائية في دراسة المجتمع وتقاضاته.

3_ التوطين الزمني والمكاني للنازلة

يمثل التوطين الزمني والمكاني من أصعب الإشكالات المنهجية في دراسة النوازل، نظراً لغياب الإشارات الصريحة إلى التاريخ أو المكان في كثير من النصوص. غير أن هذا الإجراء يظل ضرورياً لإدماج النازلة في سياقها التاريخي الصحيح. ويعتمد الباحث في ذلك على وسائل غير مباشرة، مثل الاستفادة من ترجمة الفقيه،

وتحديد فترة نشاطه العلمي والقضائي، وتتبع الأماكن التي استقر بها أو مارس فيها الإفتاء، وربط مضمون النازلة بالأحداث الكبرى المعاصرة لها. ويسمح هذا التوطين بإخراج النازلة من زمنها الفقهي ذي الطابع العام والمجرد، وإدخالها في الزمن التاريخي المحدد، مما يساعد على ربطها بالتحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عرفها المجتمع في مرحلة معينة.

يتضح من خلال ما سبق أن التعامل مع النوازل كمصدر تاريخي لا يمكن أن يتم بصورة مباشرة أو سطحية، بل يقتضي ممارسة نقد داخلي وخارجي للنص، وربطه بالواقع الاجتماعي، وتوطينه زمانياً ومكانياً. وبهذه المنهجية، تتحول النوازل من مجرد أجوبة فقهية إلى وثائق تاريخية حية، تمكن المؤرخ من استعادة صورة المجتمع من الداخل، وفهم ديناميته وتحولاته، والإسهام في بناء تاريخ اجتماعي نقي يتجاوز حدود الرواية السياسية التقليدية.

سادسا: النوازل والتجديد في البحث التاريخي

اعتمد المؤرخون المحدثون على كتب النوازل بوصفها من نوافذ التجديد في البحث التاريخي، لما تحمله من تصوير حي للحياة الفردية والجماعية. وقد انتبه إلى قيمتها عدد من المستشرقين، ثم تبعهم باحثون عرب، لما تتيحه من انتقال من تاريخ السلطة إلى تاريخ المجتمع، ومن الرواية الرسمية إلى التجربة اليومية. ولقد كانت المحاولات الأولى على هذا الطريق قد تمثلت على الخصوص في ترجمة بعض النصوص الإلقاءية، بهدف استطاعتها لتعويض النقص الكبير الذي تشكو منه التاريخ الإسلامي فيما يتعلق بوثائق الأرشيف ولا سيما ذات المنحى الاقتصادي والاجتماعي.

ويعتبر كلود كاهين Claude Cahen 1909-1991 من أوائل الذين نادوا بضرورة إعطاء أهمية للنوازل الفقهية ويعتبر كتاب "تاريخ العرب والشعوب الإسلامية" ترجمة: بدر الدين القاسم من المصادر المهمة في هذا الموضوع.

وركز كاهين بصفة خاصة على أهمية النصوص التشريعية ولا سيما ما يتعلق منها بالنوازل. وقد كرس مجموعة من الدراسات لهذا الغرض وأشرف على أطروحتات جامعية جعلت من فقه النوازل مادتها الأساسية كلّياً أو جزئياً.

قام روبر برنشفيك Robert Brunschvig (1901-1990) في "تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي" بتحليل معمق لنوازل البرزلي أبرز فيها قيمتها الوثائقية، واستقى منها معطيات تاريخية هامة عن واقع الفترة العميقة الذي صمتت عنه المصادر التقليدية. والشيء نفسه ينطبق على جاك بيرك Jacques Berque

(1910-1995) الذي اضطلع هو الآخر بجهود مماثلة في مجال توظيف الفتاوى والنوازل الفقهية، والتي أفرد لها أحياناً أعمالاً مستقلة، باعتبارها المؤطر القانوني للحياة الاقتصادية والاجتماعية.

تقتضي الدراسة التاريخية للنوازل إخراجها من زمنها الفقهي ذي الطابع السردي إلى الزمن التاريخي المحدد، عبر محاولة ضبط تاريخ ومكان النازلة، رغم ما يكتنف ذلك من صعوبات، إذ غالباً ما تغيب الإشارات الصريحة إلى zaman والمكان في نصوص النوازل.

سابعاً: نماذج من كتب النوازل في الغرب الإسلامي

تُعدّ كتب النوازل والفتاوی من أهم المصنفات الفقهية التي اكتسبت قيمة تاريخية كبيرة، لارتباطها المباشر بواقع الحياة اليومية للمجتمعات الإسلامية، وتسجيلها لمشاكل الناس وتحولاتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وتمثل هذه النصوص تعبيرًا عن «التاريخ المعاش»، إذ تكشف عن حياة العامة والهامش، بخلاف المصادر الإخبارية التي ركزت أساساً على النخب والأحداث السياسية.

وتأتي فتاوى ابن رشد الجد في مقدمة هذه المؤلفات، لما تعكسه من تحولات المجتمع الأندلسي والمغربي في العصر المرابطي، إذ تناولت قضايا دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية متنوعة، مما يجعلها مصدراً غنياً لدراسة المجتمع. كما تمثل فتاوى الإمام المازري نموذجاً مهماً لفهم أوضاع المسلمين في صقلية، في سياق متواسطي متعدد الثقافات، حيث عالجت مسائل العبادات والمعاملات والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية. وإلى جانب ذلك، تبرز كتب نوازل جامعة مثل فتاوى البرزلي والمعيار المغربي للونشريسي، التي جمعت فتاوى عدد كبير من فقهاء المغرب والأندلس، وقدمت مادة تاريخية واسعة لدراسة مختلف جوانب الحياة في الغرب الإسلامي.